قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ
(أصحاب الأيكة ، قوم مدين)

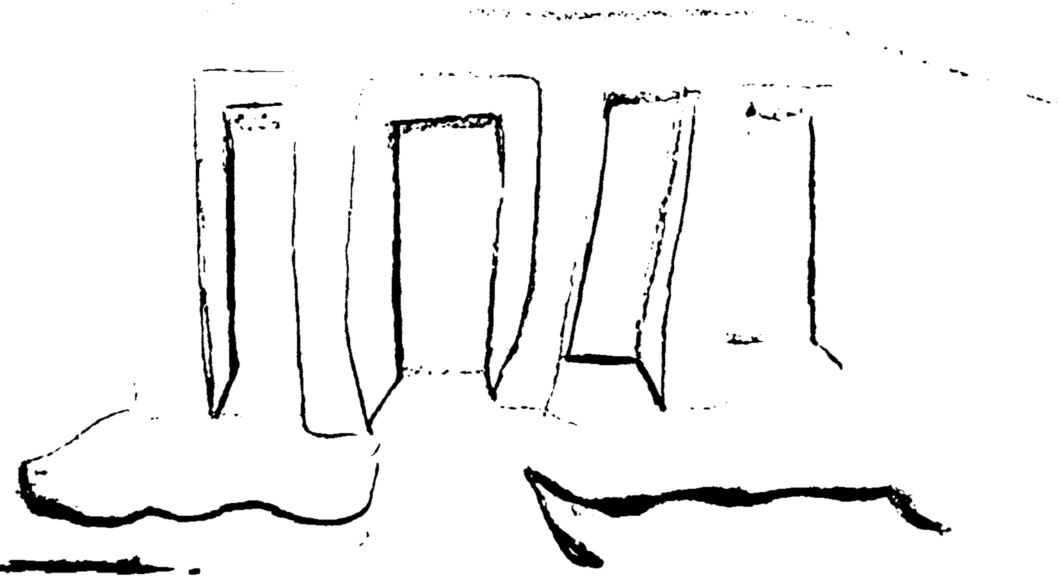

نسبهم

قيل: أهل مدين من ولد مدين بن إبراهيم الخليل، وقيل لم يكن شعيب من ولد إبراهيم، وإنما من ولد بعض من آمن بإبراهيم، وهاجر معه إلى الشام. واعلم أن مدين أمّة شعيب، هم: بنو مديان بن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأمهم قنطوراء ابنة يقطان الكنعانية، ولدت له ثمانية من الولد، تناسلت منهم أمم، وقال المسعوديّ: قد تنازع أهل الشرائع في قوم شعيب بن نوفل بن رعويل بن مرّ بن عيقا بن مدين بن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان لسانه العربية، فمنهم من رأى أنهم من العرب الدائرة والأمم البائدة(١).

موقعهم الجغرافي

مدينة قوم شعيب، عَلَيْهِ السَّلَامُ. بناها مدين بن إبراهيم الخليل جد شعيب، وهي تجارة تبوك بين المدينة والشام. بها البئر التي استقى منها موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لماشية شعيب(٢). وقال القاضي أبو عبدالله القضاعي: مدين وحيزها من كورة مصر القبلية. وقال الحازمي: بين وادي القرى والشام. وقيل: مدين اتجاه تبوك بين المدينة والشام على ست مراحل، وبها استقى موسى(٣).

---

(١). انظر: المواعظ والاعتبار: المقريزي (١/٢٣٤)، والمختصر في أخبار البشر (١/٧).
(٢). انظر: آثار البلاد وأخبار العباد: القزويني (١/١٠٤).
(٣). انظر: معجم البلدان: ياقوت الحموي، دار الفكر، بيروت (٥/٧٧).

صفاتهم

كانوا أهل كفر بالله، وبخس للناس في المكاييل والموازين وإفساد لأموالهم[1].

حياتهم

قال الله تعالى في سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف:٨٥-٩٣]، وقال في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضًا: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود:٨٤-٩٥]، وقال تعالى في الشعراء بعد قصتهم: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ

---

(١). انظر: تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري أبوجعفر، دار الكتب العلمية، بيروت (١/١٩٧).

عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٧٦-١٩١].

كان أهل مدين قومًا عربًا يسكنون مدينتهم مدين، التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام، مما يلي ناحية الحجاز، قريبًا من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة، ومدين قبيلة عرفت بهم المدينة، وهم من بني مدين بن مديان ابن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وشعيب نبيهم هو ابن ميكيل بن يشجن. ذكره ابن إسحاق، والله أعلم.

وفي حديث أبي ذر الذي في صحيح ابن حبان في ذكر الأنبياء والرسل قال: «أربعة من العرب؛ هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر»[1]. وكان بعض السلف يسمي شعيبًا خطيب الأنبياء، يعني لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته، وقد روى إسحاق بن بشر، عن جويبر، ومقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا ذكر شعيبًا قال: «ذاك خطيب الأنبياء»[2].

وكان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل، ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيك، حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوء

(١). أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/٧٦ رقم٣٦١)، وأبونعيم في حلية الأولياء (١/١٦٦-١٦٧)، والآجري في الأربعين (ص١٩٥ رقم٤٤)، وانظر: فتح الباري (٦/٤٤٩)، وضعفه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (١/٣٨٤ رقم٣٦٢).

(٢). أخرجه الحاكم (٢/٦٢٠ رقم٤٠٧١)، وابن أبي الدنيا موقوفا على سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ في العقوبات (رقم١٨٥)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/٦٠).

الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيهما، يأخذون بالزائد، ويدفعون بالناقص، فبعث الله فيهم رجلًا منهم، وهو رسول الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم، وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم، فآمن به بعضهم، وكفر أكثرهم، حتى أحل الله بهم البأس الشديد، وهو الولي الحميد، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ [الأعراف:٨٥]، أي دلالة وحجة واضحة، وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به. وأنه أرسلني، وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات، التي لم تنقل إلينا تفصيلًا، وإن كان هذا اللفظ قد دل عليها إجمالًا.

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ﴾ [الأعراف:٨٥]، أمرهم بالعدل، ونهاهم عن الظلم، وتوعدهم على خلاف ذلك، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ [الأعراف:٨٥-٨٦]، أي طريق توعدون، أي تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك، وتخيفون السبل، قال السدي في تفسيره عن الصحابة: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف:٨٦]، أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة. وقال إسحاق بن بشر، عن جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: كانوا قومًا طغاة بغاة، يجلسون على الطريق، يبخسون الناس، يعني

يعشرونهم، وكانوا أول من سن ذلك ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ [الأعراف:٨٦]، فنهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٨٦]، ذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم في تكثيرهم بعد القلة، وحذرهم نقمة الله بهم، إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه، كما قال لهم في القصة الأخرى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود:٨٤]، أي لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه، فيمحق الله بركة ما في أيديكم ويفقركم، ويذهب ما به يغنيكم، وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة، ومن جمع له هذا وهذا، فقد باء بالصفقة الخاسرة، فنهاهم أولًا عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف، وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم، وعذابه الأليم في أخراهم، وعنَّفهم أشد تعنيف، ثم قال لهم آمرًا بعدما كان عن ضده زاجرًا: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود:٨٥-٨٦]. قال ابن عباس والحسن البصري: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾، أي رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف[1]، وما فضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل، والميزان خير لكم من أخذ أموال

(١). أخرجه الطبري في تفسيره (٤٤٨/١٥)، وابن أبي حاتم (٢٠٧٢/٦)، وانظر: تفسير ابن كثير (٣٤٣/٤)، وتفسير القرطبي (٨٦/٩).

الناس بالتطفيف، وقد روي هذا عن ابن عباس[1]، وهذا الذي قاله وحكاه حسن، وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ [المائدة:١٠٠]، يعني أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام، فإن الحلال مبارك وإن قل، والحرام ممحوق وإن كثر، كما قال تعالى: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [البقرة:٢٧٦]، وقال رسول الله ﷺ: «إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلى قل»[2]، رواه أحمد، أي إلى قلة، وقال رسول الله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»[3].

والمقصود: أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل، والحرام لا يجدي وإن كثر؛ ولهذا قال نبي الله شعيب: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [هود:٨٦]، وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [هود:٨٦]، أي افعلوا ما آمركم به ابتغاء وجه الله، ورجاء ثوابه، لا لأراكم أنا وغيري ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود:٨٧].

---

(١). ذكره البغوي في تفسيره (١٩٥/٤).

(٢). أخرجه أحمد (٢٩٧/٦ رقم٣٧٥٤)، والبزار (٤١١/٥ رقم٢٠٤٢)، وأبو يعلى (٤٥٦/٨ رقم٥٠٤٢)، والطبراني في الكبير (٢٢٣/١٠ رقم١٠٥٣٨)، والحاكم (٤٣/٢ رقم٢٢٦٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٣١٥/٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم٥٣٤٢).

(٣). أخرجه البخاري (٥٨/٣ رقم٢٠٧٩)، ومسلم (١١٦٤/٣ رقم١٥٣٢).

يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم: أصلواتك هذه التي تصليها هي الآمرة لك بأن تحجر علينا، فلا نعبد إلا إلهك، ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون، أو أنا لا نتعامل إلا على الوجه الذي ترتضيه أنت، ونترك المعاملات التي تأباها وإن كنا نحن نرضاها ﴿لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧]. قال ابن عباس، وميمون بن مهران، وابن جريج، وزيد ابن أسلم، وابن جرير: يقولون ذلك -أعداء الله- على سبيل الاستهزاء.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨]. هذا تلطف معهم في العبارة، ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة، يقول لهم: أرأيتم أيها المكذبون إن كنت على بينة من ربي، أي على أمر بين من الله تعالى أنه أرسلني إليكم ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾. يعني النبوة والرسالة، يعني وعمَّى عليكم معرفتها، فأي حيلة لي بكم؟ وهذا كما تقدم عن نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال لقومه سواء.

وقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾، أي لست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له، وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه، وهذه هي الصفة المحمودة العظيمة، وضدها هي المردودة الذميمة، كما تلبس بها علماء بني إسرائيل في آخر زمانهم، وخطباؤهم الجاهلون، قال الله تعالى: ﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ

﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]. وذكرنا عندها في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه». أي تخرج أمعاؤه من بطنه، «فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان ما لك! ألم تكن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه»(١). وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء، فأما السادة من النجباء والألباء من العلماء الذين يخشون ربهم بالغيب، فحالهم كما قال نبي الله شعيب: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ﴾، أي ما أريد في جميع أمري إلا الإصلاح في الفعال والمقال بجهدي وطاقتي ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ﴾، أي في جميع أحوالي ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨]، أي عليه أتوكل في سائر الأمور، وإليه مرجعي ومصيري في كل أمري، وهذا مقام ترغيب، ثم انتقل إلى نوع من الترهيب، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٩]، أي لا تحملنكم مخالفتي وبغضكم ما جئتكم به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم، فيحل الله بكم من العذاب والنكال نظير ما أحله بنظرائكم وأشباهكم من قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح من المكذبين المخالفين.

---

(١). أخرجه البخاري (١٢١/٤ رقم٣٢٦٧)، ومسلم (٢٢٩٠/٤ رقم٢٩٨٩).

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٩]، قيل: معناه في الزمان أي ما بالعهد من قدم مما قد بلغكم ما أحل الله بهم على كفرهم وعتوهم. وقيل: معناه وما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان. وقيل في الصفات والأفعال المستقبحات من قطع الطريق، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشبهات. والجمع بين هذه الأقوال ممكن، فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم، لا زمانًا ولا مكانًا ولا صفات. ثم مزج الترهيب بالترغيب، فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، أي أقلعوا عما أنتم فيه، وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود، فإنه من تاب إليه تاب عليه، فإنه رحيم بعباده، أرحم بهم من الوالدة بولدها، ودود وهو الحبيب، ولو بعد التوبة على عبده، ولو من الموبقات العظام. ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١].

وهذا من كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع، حيث قالوا: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود:٩١]، أي ما نفهمه ولا نتعقله، لأنا لا نحبه ولا نريده، وليس لنا همة إليه ولا إقبال عليه، وهو كما قال كفار قريش لرسول الله ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت:٥]. وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾، أي مضطهدًا مهجورًا ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾، أي: قبيلتك وعشيرتك فينا ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ [هود:٩١-٩٢]، أي تخافون قبيلتي وعشيرتي وتراعوني بسببهم، ولا تخافون جنبة الله، ولا ترعوني لأني

رسول الله، فصار رهطي أعز عليكم من الله ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾، أي جعلتم جانب الله وراء ظهوركم ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [هود:٩٢]، أي هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه، محيط بذلك كله، وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ [هود:٩٣]. وهذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد، بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار، ومن يحل عليه الهلاك والبوار ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾، أي في هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ [هود:٣٩]، أي في الأخرى ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾، أي مني ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ [هود:٩٣]، وهذا كقوله: ﴿۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ٨٨ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩]. طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه، فقال: ﴿أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف:٨٨]، أي هؤلاء لا يعودون إليكم اختيارًا، وإنما يعودون إليه إن عادوا اضطرارًا مكرهين، وذلك لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، ولا يريد أحد أن يزول عنه، ولا محيد لأحد

منه. ولهذا قال: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ ﴾ [الأعراف:٨٩]، أي فهو كافينا، وهو العاصم لنا، وإليه ملجؤنا في جميع أمرنا، ثم استفتح على قومه، واستنصر ربه عليهم في تعجيل ما يستحقونه إليهم، فقال: ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف:٨٩]، أي الحاكمين فدعا عليهم، والله لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه، ورسوله خالفوه، ومع هذا صمموا على ما هم عليه مشتملون، وبه مستمسكون ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف:٩٠-٩١].

أنهم أخذتهم رجفة، أي رجفت بهم أرضهم، وزلزلت زلزالًا شديدًا، أزهقت أرواحهم من أجسادها، وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها، وأصبحت جثثهم جاثية، لا أرواح فيها، ولا حركات بها، ولا حواس لها، وقد جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات، وصنوفًا من المثلات، وأشكالًا من البليات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، سلط الله عليهم رجفة شديدة، أسكنت الحركات، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات، ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها، ويوافق طباقها في سياق قصة الأعراف: أرجفوا نبي الله وأصحابه، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم، أو ليعودن في ملتهم راجعين، فقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف:٩١]،

فقابل الإرجاف بالرجفة والإخافة بالخيفة، وهذا مناسب لهذا السياق، ومتعلق بما تقدمه من السياق، وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم، والاستهزاء والتنقص: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧]. فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح، الذي جهلوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم. وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم ﴿عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ [الشعراء:١٨٩]. وكان ذلك إجابة لما طلبوا، وتقريبًا إلى ما إليه رغبوا، فإنهم قالوا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ١٨٧ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الشعراء:١٨٥-١٨٨].

ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره: أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف، وإنما عمدتهم شيئان؛ أحدهما أنه قال: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٧]. ولم يقل: أخوهم كما قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ [هود:٨٤]. والثاني: أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة، وذكر في أولئك الرجفة، أو الصيحة. والجواب عن الأول أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٧٦]؛ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الأخوة ها هنا، ولما نسبهم إلى القبيلة

ساغ ذكر شعيب بأنه أخوهم. وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة. وأما احتجاجهم بيوم الظلة، فإن كان دليلًا بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى فليكن تعداد الانتقام بالرجفة، والصيحة دليلًا على أنهما أمتان أخريان، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئًا من هذا الشأن، ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان، فدل على أنهم أمة واحدة أهلكوا بأنواع من العذاب، وذكر في كل موضع ما يناسب ذلك الخطاب.

وقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء:١٨٩]. ذكروا أنهم أصابهم حر شديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، ولا دخولهم في الأسراب، فهربوا من محلتهم إلى البرية، فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيه أرسلها الله عليهم ترميهم بشرر وشهب من نار، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء، فأزهقت الأرواح، وخربت الأشباح ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٩١-٩٢]، ونجى الله شعيبًا ومن معه من المؤمنين، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود:٩٤-٩٥]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا

﴿فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝٩١ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٠-٩٢]. وهذا في مقابلة قولهم: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾، ثم ذكر تعالى عن نبيهم أنه نعاهم إلى أنفسهم موبخًا ومؤنبًا ومقرعًا، فقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٣]، أي أعرض عنهم موليًا عن محلتهم بعد هلاكهم قائلًا: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، أي قد أديت ما كان واجبًا عليَّ من البلاغ التام والنصح الكامل، وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه، وأتوصل إليه فلم ينفعكم ذلك؛ لأن الله لا يهدي من يضل، وما لهم من ناصرين، فلست أتأسف بعد هذا عليكم، لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة، ولا تخافون يوم الفضيحة؛ ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ﴾ أي أحزن ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي لا تقبلون الحق، ولا ترجعون إليه، ولا تلتفتون إليه، فحل بهم من بأس الله الذي لا يرد ما لا يدافع، ولا يمانع، ولا محيد لأحد أريد به عنه، ولا مناص منه، وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه، عن ابن عباس أن شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان بعد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ. وعن وهب بن منبه أن شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ مات بمكة ومن معه من المؤمنين، وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم، والله أعلم[١].

---

(١). البداية والنهاية مرجع سابق (٤٢٥/١-٤٤٠)، وانظر: الكامل في التاريخ: علي بن أبي = الكرم محمد ابن عبدالكريم الشيباني، ت: عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ، (١١٩/١)، وتاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري، =

العبر والعظات المستفادة

١. جميع الرسل كانت مهمتهم الدعوة الىٰ الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنهي عن الفساد في الأرض، وإعطاء الناس حقوقهم والإصلاح بحسب القدرة والإمكان، وبدفع المفاسد وتقليلها، بأسلوب حسن، فيه تودد وتلطف ورحمة، حتىٰ يكون له القبول والاستجابة والصبر علي ذلك.

٢. أن نقص المكاييل والموازين من كبائر الذنوب، وأن ذلك من سرقة أموال الناس. تفضل الله للإنسان بالمال أمانة، فعليه أن يقوم بأداء حق الله فيه، والامتناع عن المكاسب التي حرمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار ومن أشبههم، أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاؤون ويختارون، سواء وافق حكم الله أو خالفه.

٣. القناعة بما رزق الله وآتاه من النعم، وبحلاله عن حرامه، وبالمكسب المباح القليل عن المكسب الكثير المحرم، مما يزيد البركة والرزق.

= دار الكتب العلمية، بيروت (١/٩٨).

٤. سنة الله في ردع الظالمين، فالعقوبة من جنس العمل، فمن بخس أموال الناس، يريد زيادة ماله، عُوقِبَ بنقيض ذلك، وكان سببًا لزوال الخير الذي عنده.

٥. أهمية الصلاة وأنها مشروعة للأنبياء المتقدمين، وهي من أفضل الأعمال حتىٰ إنه متقرر عند الكفار فضلها، وتقديمها علىٰ سائر الأعمال، وأنها تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزان للإيمان وشرائعه، فبإقامتها علىٰ وجهها تكمل أحوال العبد، وبعدم إقامتها، تختل أحواله الدينية.

٦. أن عاقبة المكذبين للرسل الهلاك والدمار، وما أكرم الله به أهل التقوىٰ.

٧. أهمية التوبة والإقلاع عن الذنب، وبيان كيفية أن يُعْفَىٰ عنه الله تعالىٰ.

٨. أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة، قد يعلمون بعضها، وقد لا يعلمون شيئًا منها، كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه.